الاستشهاد بالآيات على معاني الأبيات

(معلقة امرئ القيس نموذجاً)

د. عبد الرحمن الصالح السليمان الدهش

الأستاذ المساعد بقسم القرآن وعلومه

كلية الدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

الاستشهاد بالآيات على معاني الأبيات (معلقة امرئ القيس نموذجًا)

عبد الرحمن الصالح السليمان الدهش

قسم القرآن وعلومه – كلية الدراسات الإسلامية جامعة القصيم – السعودية

البريد الإلكتروني :Addahsh٣١@gmail.com

الملخص :

تكون البحث من مبحثين: وخاتمة أخيرة للبحث، في المبحث الأول تم بيان الاستشهاد بالآيات في الإعراب، والاستشهاد بالقراءات، وتم ضرب الأمثلة لذلك، ثم تطرق البحث إلى الاستشهاد من باب النظير، ووضع لذلك أمثلة متعددة، والاستشهاد بالآيات في الصرف مع الأمثلة الموضحة لذلك. وفي المبحث الثاني: تم إيراد الاستشهاد بالآيات على المعاني، وانقسم إلى قسمين: المعاني القريبة، ووضع لها أمثلتها، والمعاني البعيدة ووضع لها أمثلتها.

الكلمات المفتاحية: الاستشهاد، الإعراب– القراءات، النظير– المعاني– امرئ القيس.

Quoting verses based on the meanings of the verses (Suspended Imru' Al-Qays as a model)

Abdul Rahman Al-Saleh Al-Sulaiman Al-Dahesh
Department of the Qur'an and its Sciences - College of Islamic Studies, Qassim University - Saudi Arabia
E-mail:Addahsh٣١@gmail.com

Abstract :
The research consisted of two sections: and a final conclusion to the research, in the first topic, the citation of verses in the syntax, and the citation of the readings, and examples were struck for that. And in the second topic: the verses were cited on the meanings, and it was divided into two parts: the close meanings, and he gave their examples, and the distant meanings and gave them their examples.

Keywords: Martyrdom, Parsing - Readings, Analogy - Meanings - Imru' Al-Qays.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين ... أما بعد:

فقد اعتنى العلماء بالشاهد الشعري في تفاسيرهم، وتنوعت مواردهم، ففي تفسير الطبري (ت٣١٠) الذي كان له سبق في العناية بالشواهد الشعرية، حيث ضم بين دفتيه أكثر من ألفين ومائتي شاهدٍ شعري.

ويبلغ عجبك وإعجابك منتهاه حينما تعرف أن تفسير القرطبي (ت٦٧١) الجامع لأحكام القرآن أودعه صاحبه أكثر من ضعف هذا العدد، حيث قاربت شواهده خَمسة آلاف شاهد في اللغة، والغريب، والنحو، والقراءات، والبلاغة، والأدب، والتاريخ، وهو أوسع كتب التفسير أو من أوسعها إيرادًا للشعر؛ لكثرة اطلاعه، وتأخر زمنه(١).

وبقية التفاسير على هذا بين مُقلٍ ومكثرٍ، وهذا إجماع عملي على أهمية الشاهد الشعري، ناهيك عن كتب غريب القرآن، ومعانيه، ومفرداته.

كما أن هناك جهودًا لبعض الباحثين حول الشاهد الشعري في تفسير ما من حيث: جمعها، وتوثيقها، وبعض الدراسات حولها، وما أشبه ذلك(٢).

وهذه الجهود لا تعني حاجة القرآن إلى هذه الاستشهادات، فكلام رب البشر لا يحتاج إلى كلام البشر.

وإنما الحاجة في قارئ القرآن حينما ينغلق عليه معنى من معاني القرآن لسبب فيه، لا في القرآن نفسه؛ فيحتاج إثرها إلى ما يفتح له هذا الانغلاق، ويكشف هذا الغموض.

وهذا معنى ما روي عن ابن عباس (ت٦٨) رضي الله عنه حين قال: «الشعر ديوان العرب، فإن خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها، فالتمسنا ذلك منه»(٣).

(١) ينظر: الشاهد الشعري في تفسير القرآن الكريم، للشهري (ص٩ وما بعدها).

(٢) ينظر: المرجع السابق، التفسير اللغوي للقرآن الكريم أ. د مساعد الطيار. (ص٢١١).

(٣) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (١١٩/١).

ومن أقدم ما يمثل به لذلك ما رُوِيَ أن عمر بن الخطاب ا قرأ على المنبر قوله تعالى: ﴿ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖۖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ [سورة النحل: ٤٧]، فسأَلَ عن التخوفِ، فقام رجلٌ من قبيلةِ هُذيلٍ وقال: "التخوفُ عندنا التنقصُ"، ثم أنشدهُ:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنها تَامِكًا قَرِدًا كَمَا تَخَوَّفَ عُوْدَ النبَّعْةِ السَّفَنُ

فقال عمر: «أيها الناس، تَمسكوا بديوان شعركم في جاهليتكم فإن فيه تفسير كتابكم» [(١)].

ومسائل نافع بن الأزرق الخارجي (تـ٦٥) المشهورة مع ابن عباس رضي الله عنه (تـ٦٨) هي فيما نحن فيه[(٢)].

ثم توارد الناس على كلام العرب –وعلى شعرها بالأخص– لتحقيق هذا المقصد، وأهل التفسير ومعاني القرآن والمشتغلون بتوجيه القراءات كتبهم خير شاهد على ذلك.

ثم بعد هذا كله، وبعد إدراكنا لعلاقة المشتغل في كتاب الله بالشاهد الشعري يأتي السؤال العكسي: وماذا عن علاقة المشتغل بالشواهد الشعرية أو بالشعر عمومًا بالقرآن الكريم؟

ففكرة البحث تخرج من كتب الشعر وشروحه إلى القرآن وتفسيره، وهنا تبرز أهمية البحث حينما يعود الفرع إلى الأصل.

---

(١) القصة مشهورة، ذكرت في كثير من كتب التفسير وغيرها، واختلف في نسبة البيت أهو لابن مقبل (تميم بن أُبيّ بن مُقبل) أم لأبي كبير الهذلي؟ وفي تفسير الطبري (هجر) (١٤/ ٢٣٦)، البيت من غير ذكر القصة، وهي مذكورة في: إيضاح الوقف والابتداء، لابن الأنباري (١/ ٩٨)، معاني القرآن، للزجاج (٣/ ٢٠١)، المحرر الوجيز (٨/ ٤٢٧)، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٠/١٠٩)، على تفاوت في ألفاظها.

(٢) احتفى أهل التفسير وعلوم القرآن وغيرهم بهذه المسائل، وأفادوا منها على تفاوت في طرائق الاستفادة منها، كما حظيت هذه المسائل بدراسات مستقلة، وانظر مبحثًا نفيسًا حول هذه المسائل في كتاب الشاهد الشعري في تفسير القرآن، للشهري (٢٥٥-٣١٢).

وقد سطّر شرّاح الدواوين الشعرية –وكتب الأدب عمومًا– كثيرًا من آيات القرآن معتمدين عليها في بيان معاني ما خفي من كلام الشعراء، أو توضيح ما أشكل في ضبط كلمة شعرية أو إعرابها.

والنظرة العامة تجيب عن السؤال السابق، وهو أن شراح الشعر العربي أوردوا كثيرًا من الآيات القرآنية لأغراض مختلفة، فالعلاقة متبادلة بين المبينين لكلام الله من المفسرين، و**بين** المشتغلين في شرح كلام الشعراء وتبيين معاني الأبيات، فلئن كانت العلاقة الأولى هي في **(الاستشهاد بالأبيات على معاني الآيات)** فهذا البحث الذي بين يديك وتحت ناظريك هو صورة مقابلة، تحاول أن تكشف الدور العكسي في الموضوع بما نستطيع أن نعنونه بـ **(الاستشهاد بالآيات على معاني الأبيات)**.

ولا يخفاك أن الاستشهاد بهذه الطريقة هو استشهاد نوعي، حيث هو اعتماد على أصل وتحول إلى ركن شديد، وهو ترقٍّ في الاستشهاد، وتقديم ما هو أحق بالتقديم[1].

ولكن يبقى للباحث نظر في سياقات هذه الاستشهادات، وتفاوت الأغراض التي أوردت الآية، أو جزء منها من أجله.

وكما تعددت أغراض المفسرين في استشهادهم بالأبيات سوف تتعدد أغراض الشراح أيضًا في استشهادهم بالآيات.

ثم الأهم من ذلك صحة الاستشهاد، وتوافقه مع ما قيل في معنى الآية.

وهل ذكر الآية هو على وجه راجح عند أهل التفسير، أو على وجه مرجوح لا يصح، أو هو وجه مرجوح يمكن أن يصح؟

(١) ينظر: فتح المغلقات، لزين الدين الفاكهي (٣٠٦/١)

وحتى تتضح الصورة أكثر ويكون البحث في فكرته الأولى[١] محصورًا في إطار يسهل التعامل معه عمدت إلى القصائد المشهورات الجاهليات[٢]، التي اعتبرها العلماء في الجملة عيونًا من أشعار الجاهلية، وكثير من شواهدهم ترجع إليها، وأيضًا توارد كثير من أهل العلم على شرحها ودراستها.

ثم عمدت إلى المعلقة التي اتفقوا على تقديمها على سائر المعلقات، وأكثروا الاستشهاد منها[٣]، وبلغ من شهرتها أن يقول المتمثل- في شيء اشتهر ووضح أمره -: هو أشهر من (قفا نبك)! إنها معلقة امرئ القيس[٤].ثم اخترت من شراحها شرح أبي عبد الله الحسين بن أحمد **الزَّوزني** (ت٤٨٦)[٥] لشهرته وتداوله أكثر من غيره بين الدارسين، ولاستفادته مما سبقه من الشروح، ثم عنايته بإبراز معاني الأبيات بطريقة أدبية سهلة بعد الكلام على شيء من إعرابها وغريبها، وربما صدر ذلك بقوله: **(يقول)**، فاستخرجت الآيات التي أوردها في شرح هذه المعلقة، فبلغت ست عشرة آية.

(١) لم أقف على من ناقش الموضوع بالطريقة التي أشرت إليها، وأردتها بهذا البحث.

(٢) هذا هو الوصف الذي اختاره أشهر شراح تلك القصائد على اختلاف بينهم في عددها، كابن الأنباري (ت ٣٢٨)، وابن النحاس (ت٣٣٨)، وأبي عبد الله الزوزني (ت٤٨٦) – محل الدراسة في هذا البحث-، وأبي زكريا التبريزي (ت٥٠٢)، وتجاوزوا تسميتها بالمعلقات. والخلاف في تسميتها معلقات وسبب ذلك بحث قديم، وتسميتها بالمعلقات ينسب إلى حماد الراوية الكوفي (ت١٨٥)، واعتمد هذه التسمية ابن عبد ربه في العقد الفريد (ت٣٢٨)، وابن رشيق (ت٣٩٠) في كتابه العمدة. ينظر: مقدمة شرح ابن الأنباري لعبد السلام هارون (ص١١، وما بعدها).

(٣) استشهد ابن هشام في المغني بنحو ٢٠ بيتًا متفرقة من المعلقة.

(٤) هو امرؤ القيس بن حجر الكندي، شاعر جاهلي ولد في بلاد بني أسد في نجد، وقد مال في شعره إلى اللهو والغزل، خرج يطلب ملك أبيه ثم دبر لقتله في الطريق؛ فكانت وفاته (٨٠ ق. هـ تقريبًا). ينظر: طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي (٥١/١)، الشعر والشعراء، لابن قتيبة (١١٤/١).

(٥) هو الحسين بن أحمد بن الحسين، الزوزني، نسبة إلى زوزن -بفتح أوله، وسكون ثانية-، وقيل: بضم أوله، وهي قرية بين نيسابور وهراة، وصف الزوزني بالأصولي، والأديب، والنحوي، وله مسلك حسن في تسهيل العلوم، وتقريب المعاني، وشرحه للقصائد السبع أكبر شاهد على ذلك، توفي سنة ٤٨٦هـ. ينظر: معجم الأدباء، للحموي (١٠٣٨/٣)، بغية الوعاة، للسيوطي (٥٣١/١).

طريقة الدراسة:

ذكرت الأبيات محل البحث موزعة على حسب خطة البحث، مبقيًا رقم البيت حسب وروده في شرح الزوزني (ت٤٨٦)، وقبل دراسة البيت والآية المستشهد بها أقدم بتوضيح موجز حول معنى البيت بما يعين على دراسته مستفادًا من الشرح المذكور.

ثم أورد نص عبارة الشارح المتضمنة للآية المستشهد بها.

وأوضح وجه الاستشهاد إن لزم الأمر، ثم أقوم بمناقشة الاستشهاد وبيان صحته من عدمها من خلال كلام المفسرين، وكتب معاني القرآن، وأهل اللغة، وغيرها مما تتطلبه المسألة محل البحث.

هذا وقد جاء البحث مقسمًا بالطريقة الآتية:

خطة البحث

المبحث الأول: الاستشهاد بالآيات على الألفاظ.

المطلب الأول: الاستشهاد بالآيات في الإعراب.

المسألة الأولى: (الاستشهاد بالقراءات).

المثال الأول: وَيَوْمَ عَقَرْتُ للعَذارى مَطيّتي فيا عجبًا من كُورِها الْمُتَحَمَّلِ

المثال الثاني: أصاحِ ترى برقًا أريك وَميضَه كلمح اليدين في حَبِي مُكَلَّل

المسألة الثانية: (الاستشهاد من باب النظير).

المثال الأول: وَلما دَخَلتُ الخِدْرَ، خِدْرَ عُنَيزَةٍ ... فقالتْ: لَكَ الوَيلاتُ إنَّكَ مُرْجِلي

المثال الثاني: فلمّا أجزْنا ساحَةَ الحيّ وانْتَحَى بنا بطنُ خَبْتٍ ذي حِقَافٍ عقَنقَل

المثال الثالث: فَقُلْتُ لَهُ لمّا عَوَى: إنَّ شَأْنَنا ... قَليلُ الغنى إنْ كنتَ لَمّا تَمَوَّلِ

المطلب الثاني: الاستشهاد بالآيات في الصرف (مسألة التذكير والتأنيث).

المسألة الأولى: تأنيث المنسوب.

المسألة الثانية: (فعيل) بمعنى: (مفعول).

المسألة الثالثة: (فعول) بمعنى: (فاعل).

المبحث الثاني: الاستشهاد بالآيات على المعاني.

المطلب الأول: المعاني القريبة.

المثال الأول: تُضيءُ الظَّلامَ بالعِشاءِ كأنَّها مَنَارَةُ مُمْسَى راهبٍ مُتَبَتِّلِ

المثال الثاني: ألا رُبّ خَصْم فيكِ أَلْوَى رَدَدتُه نصيحٍ على تَعذالهِ غيرِ مُؤتَلِ

المثال الثالث: كِلانا إذا ما نالَ شيئًا أفاتَهُ ومَن يحترِث حَرْثي وحَرْثك يهزُلِ

المطلب الثاني: المعاني البعيدة.

المثال الأول: قِفا نبك من ذِكرى حبيبٍ ومنزل بسِقطِ اللّوى بينَ الدَّخول فَحَوْمَلِ

المثال الثاني: وإن تك قد ساءتك مني خليقة فسُلي ثيابي من ثيابك تنْسُل

المثال الثالث: وَما ذَرَفَتْ عَيناكِ إلا لتَضْرِبِي بسَهمَيك في أعشار قَلبٍ مُقَتَّلِ

– **الخاتمة:** وفيها أهم النتائج التي توصلت إليها. ثم مراجع البحث، وفهرس الموضوعات.

والله أسأل أن يكون ما قمت به صوابًا، فقد كان هذا البحث الذي بين يديك فكرة انقدحت، ثم ها هي أوراق سطرت، لتصل إلى القارئ الكريم، له غنمها، وعليَّ غرمها، والله يجبر قصورًا فيَّ، أو تقصيرًا منِّي.

المبحث الأول:
الاستشهاد بالآيات على الألفاظ

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الاستشهاد بالآيات في الإعراب.

المطلب الثاني: الاستشهاد بالآيات في الصرف (مسألة التذكير والتأنيث).

المطلب الأول:

الاستشهاد بالآيات في الإعراب

المسألة الأولى: (الاستشهاد بالقراءات):

تعددت التعاريف المذكورة في المراد بالقراءات، ومن أشهرها تعريف ابن الجزري (ت٨٣٣)، حيث قال: "القراءات علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعَزْو الناقلة"(١).

والمستشهدون بالآيات الكريمات لم يقتصروا على قراءة دون أخرى، بل ولم يشترطوا ثبوتها، واكتفوا بمجرد ورودها، ولئنْ استشهدوا ببيت من الشعر اختلف في قائله، أو لم يعرف أصلاً، فهو مجهول القائل، أو حامت شكوك حول انتحاله ونسبته فالاستشهاد بقراءة نُقِلت عن تابعي عن صحابي عن الرسول ق أولى(٢).

قال سيبويه (ت١٨٠): "... القراءة لا تُخالَفُ؛ لأنّ القراءة السُّنَّةُ"(٣).

وكان الخليل (ت١٧٥) شيخ سيبويه يَحترم القراءات، ولا يَطعُن فيها(٤).

يقول السيوطي (ت٩١٠): "أما القرآن فكل ما ورَد أنه قُرِئ به جاز الاحتجاج به في العربية؛ سواء كان متواترًا، أم آحادًا، أم شاذًّا"(٥).

هذا هو الموقف العام من القراءات وحجية الاستشهاد بها، وهو الموقف العملي في كثير من مواطن الاستشهاد، سواء في ذلك كتب التفسير أم اللغة أم غيرها(٦)، ومن ذلك صنيع الزوزني (ت٤٨٦) في شرح معلقة امرئ القيس،

---

(١) ينظر: منجد المقرئين ومرشد الطالبين، لابن الجزري (ص٣).

(٢) هناك شروط ثلاثة ذكرها العلماء لقبول القراءة، وهي: ١-صحة السند. ٢- موافقة الرسم العثماني. ٣- موافقة اللغة العربية ولو من وجه. ينظر: النشر في القراءات العشر، لابن الجزري (٩/١).

(٣) ينظر: الكتاب، لسيبويه (١/ ١٤٨).

(٤) ينظر: المدارس النحوية؛ للدكتور شوقي ضيف، (ص ١٥٧) بتصرف.

(٥) ينظر: الاقتراح، للسيوطي (ص٩٦).

(٦) ينظر: الاحتجاج بالقراءات القرآنية وموقف النحاة منه، محمود حسن عمر، شبكة الألوكة: www. alukah. net

حيث يورد الآية أو جزءًا منها، ويكون الشاهد منها على قراءة وردت، فلا يتردد في اعتمادها شاهدًا لإثبات ما سيقت من أجله، وإليك بيان ذلك في موضعين، هما مثالان يثبتان اعتماد الآية بما ورد فيها من قراءات شاهدًا في المسألة المرادة.

المثال الأول:

١١- وَيَـوْمَ عَقَـرْتُ للعَـذارى مَطيّتِـي فيـا عجبًـا مـن كُورِهـا الْمُتَحَمَّـلِ

العذارى جمع عذراء، وهي البكر من النساء، الكُور: الرحل بأداته، المتحمل: اسم مفعول، بمعنى: المحمول(١).

يتعجب امرؤ القيس يوم أن عقر ناقته لهؤلاء العذارى، فبقي بلا مطية يركبها! وكيف ألزمهن بحمل متاعه بعد ذلك؟

بحث الزوزني إعراب **(يوم)** في أول البيت، وأورد الاحتمالات فيها، فقال: "فتح **(يوم)** مع كونه معطوفًا على مجرور أو مرفوع وهو: يومٌ أو يومٍ بدارة جلجل؛ لأنه بناه على الفتح لما أضافه إلى مبني، وهو الفعل الماضي، وذلك قوله: **(عقرت)**، وقد يبنى المعرب إذا أضيف إلى مبني، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الذاريات: ٢٣]؛ فبنى (مثل) على الفتح مع كونه نعتًا لمرفوع لما أضافه إلى (ما) وكانت مبنية، ومنه قراءة من قرأ: ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَومَئِذٍ﴾ [سورة هود: ٦٦]، بنى (يوم) على الفتح لما أضافه إلى **(إذ)** وهي مبنية، وإن كان مضافًا إليه"(٢).

قلت: تكلم النحاة فيما أضيف إلى الجملة جوازًا من الظروف، وبينوا أن فيه وجهين للنحاة: الإعراب والبناء، والمرجح فيما أضيف إلى جملة فعلية صدرت بفعل ماضي هو البناء، كما هو في البيت (ويومَ عقرت) فالفتحة فتحة بناء، وفي إعرابه الأوجه الثلاثة: إما أن يكون خبرًا لمبتدأ محذوف، أي: هو

(١) ينظر: شرح الزوزني (٢٣)، فتح الكبير المتعال، محمد الدرة (٥٠/١).
(٢) ينظر: شرح الزوزني (٢٣).

يوم عقرت، أو معطوفًا على **(يوم بدارة جلجل)** في البيت السابق؛ وهذان ذكرهما الزوزني، والوجه الثالث: أن يقدر عامل، أي: (اذكر يوم عقرت).

ولم يرد في القرآن الكريم أن أضيفت (يوم) إلى جملة مصدرة بفعل ماضٍ؛ ولذا عمد الزوزني إلى ذكر ما بني بسبب إضافته لمبني في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الذاريات: ٢٣].

فهو تنظير وتشبيه لأصل المسألة، وهي كذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمَئِذٖ﴾ [سورة هود: ٦٦]، ببناء (يوم) على الفتح في قراءة الكسائي، ونافع في رواية ورش وقالون، وآخرين، حيث اكتسب من المضاف إليه (إذ) البناء(١).

المثال الثاني:

٧٠- أصاحِ ترى برقًا أريك وَميضَه كلمح اليدين في حَبِي مُكَلَّل

الحَبي: السحاب المتراكم. مُكَلَّل: من التكليل، وهو الإحاطة(٢).

المعنى: ينادي امرؤ القيس صاحبًا له، يقول له: هل ترى برقًا أريك لمعانه كحركة اليدين في سحاب متراكم حتى صار أعلاه كالإكليل لأسفله؟(٣)

قال الزوزني (ت٤٨٦): أصاح، أراد: أصاحبُ، فرخم كما تقول في ترخيم حارث: يا حارِ، وفي ترخيم مالك: يا مالِ، ومنه قراءة من قرأ: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ ﴿٧٧﴾﴾ [سورة الزخرف: ٧٧].

(١) ينظر: السبعة، لابن مجاهد (ص ٣٣٦)، الحجة، لأبي علي الفارسي (٣٤٩/٤)، الكشف، لمكي (٥٣٢/١).

(٢) ينظر: شرح الزوزني (٥٩)، فتح الكبير المتعال، محمد الدرة (١٤٧/١).

(٣) ينظر: شرح الزوزني (٥٩).

التعليق: الترخيم باب معروف، وهو حذف آخر المنادى، ثم لهم في الاسم المرخم بعد حذف آخره وجهان: إما أن تبقي ما قبل الحرف المحذوف على حركته كما في البيت بكسر الحاء (صاحِ)، وهو ما يسمونه بلغة من ينتظر، ولك أن تعامله كأنه لم يحذف منه شيء فتبنيه على الضم، وهي لغة من لا ينتظر(١).

والآية التي أشار إليها الزوزني: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [سورة الزخرف: ٧٧] قرئت بالوجهين في الشواذ،. فقراءة علي بن أبي طالب وعَبْد اللَّهِ بن مسعود ب، وَابْن وَثَّابٍ، وَالْأَعْمَش: يَا مَالِ، بِالتَّرْخِيمِ، عَلَى لُغَةِ مَنْ يَنْتَظِرُ الْحَرْفَ، وَقَرَأَ أَبُو السِّرَارِ الْغَنَوِيُّ: يَا مَالُ، بِالْبِنَاءِ عَلَى الضَّمِّ، جُعِلَ اسْمًا عَلَى حِيَالِهِ(٢).

قالَ ابْنُ عَطِيَّةَ (ت٥٤٦): وَقِرَاءَةُ: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ﴾ رَوَاهَا أَبُو الدَّرْدَاءِ عَن النبي ق(٣).

قال ابن عاشور (ت١٣٩٣): "فَيكون النبي ق قَرَأَ بِالْوَجْهَيْنِ، وَتَوَاتَرَتْ قِرَاءَةُ إِثْبَاتِ الْكَافِ، وَبَقِيَتِ الْأُخْرَى مَرْوِيَّةً بِالْآحَادِ، فَلَمْ تَكُنْ قُرْآنًا"(٤).

---

(١) ينظر: شرح ابن عقيل (٢/٢٩٣).

(٢) ينظر: مختصر ابن خالويه (١٣٧)، المحتسب، لابن جني (٢/ ٢٥٧)، فتح الباري (٥/٥٦٨).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز (٨/٦٥٢)، ورواية أبي الدرداء رواها حفص بن عمر في "جزء فيه قراءات النبي ق" (ص١٤٦، ١٤٧)، وسندها ضعيف.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير (٢٥/٢٦٠)

فائدة: قال ابن عاشور: "وَمِنَ النَّوَادِرِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَا رُوِيَ أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ قَرَأَ: (وَنَادَوْا يَا مَالِ) بِحَذْفِ الْكَافِ عَلَى التَّرْخِيمِ، فَذُكِرَتْ قِرَاءَتُهُ لِابْنِ عَبَّاسٍ فَقَالَ: مَا كَانَ أَشْغَلَ أَهْلَ النَّارِ عَنِ التَّرْخِيمِ!

قال ابن جني: "وللترخيم في هذا الموضع سر، وذلك أنهم- لعظم ما هم عليه- خفيت قواهم، وذلت أنفسهم، وصغر كلامهم، فكان هذا من موضع الاختصار ضرورة".

قلت (ابن عاشور): هذا اعتذار منه لقراءة ابن مسعود، حيث ردها ابن عباس، وخلاصة اعتذار ابن جني: أن هذا الترخيم لم يصدر عنهم من التكليف، بل عن العجز وضيق المجال.

ينظر: المحتسب، لابن جني (٢/٢٥٧)، فتوح الغيب، للطيبي (١٤/ ١٧٧)، التحرير والتنوير (٢٥/٢٦٠).

المسألة الثانية: (الاستشهاد من باب النظير):

لعل من أوضح مقاصد الاستشهادات التي يعمد إليها المستشهدون في استشهاداتهم هو إيجاد النظير المماثل للمستشهد به، وتزداد أهمية هذا الاستشهاد حينما يرتفع بهذا النظير حيث يلحق الأقل بالأعلى بوجه من الوجوه، وهذا هو حقيقة العمل بهذا البحث.

وفي شرح المعلقات عمد الشراح –ومنهم الزوزني محل بحثنا– إلى إلحاق كلمات في إعرابها إلى نظائر لها من الآيات القرآنية لتكتسب قوة في التوجيه الإعرابي، وأن البيت جارٍ على استعمال صحيح وعربي فصيح، ولهذا أمثلة:

المثال الأول:

١٣– ولما دَخَلتُ الخِدْرَ، خِدْرَ عُنَيزَةٍ فقالتْ: لَكَ الوَيلاتُ إنَّكَ مُرْجِلي

يصور امرؤ لقيس يومًا من أيام لهوه وفسقه، وذلك يوم أن دخل على معشوقته عنيزة الهودج فدعت عليه بالويل؛ لأنه سوف يتسبب في عقر ظهر ناقتها، فيضطرها إلى المشي راجلة!

يقول الزوزني: "(خدر عنيزة) بدل من الخدر الأول، والمعنى: يوم دخلت خدر عنيزة، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [سورة غافر: ٣٦–٣٧]"(١).

يريد أن كلمة (خدر) الثانية هي بدل من (الخدر) الأولى، وهو بدل كل من كل أو هو بدل مطابقة كما يسميه ابن مالك (ت٦٧٢)(٢).

وهذا الإعراب نظيره إعراب ﴿أَسۡبَٰبَ﴾ في الآية المذكورة بدلاً من كلمة ﴿ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾ المذكورة قبلها، وهذا التنظير هو لزيادة التوضيح فقط؛ إذ لم يذكر في إعراب الآية وجه آخر.

(١) ينظر: شرح الزوزني (ص٢٤).

(٢) ينظر: شرح الكافية لابن مالك (١٢٧٦/٣)، حاشية الخضري على ابن عقيل (٩٦/٢).

المثال الثاني:

٢٩- فلمّا أجزْنا ساحَةَ الحيّ وانْتَحَى بنـا بطـنُ خَبْـتٍ ذي حِقَـافٍ عقَنقَـل

يصور امرؤ القيس في هذا البيت خروجهم من بين بيوت القبيلة ومصيرهم إلى مكان خبت -أي: مطمئن- تكثر فيه الرمال المنعقدة المتلبدة[١].

وقد ناقش الزوزني (ت٤٨٦) في شرح هذا البيت جواب **(لما)**، وهل هو مذكور أو محذوف؟

وعلى القول بأنه مذكور هل هو مذكور في هذا البيت أو في البيت الذي بعده؟

قال الزوزني: "وزعم أبو عبيدة (ت٢١٠)[٢] وأكثر الكوفيين أن الواو في (وانتحى) مقحمة زائدة، وهو عندهم جواب **(لَمّا)**، وكذلك قولهم في الواو في قوله تعالى: ﴿ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [سورة الصافات: ١٠٤].

والواو لا تقحم زائدة في جواب **(لَمّا)** عند البصريين[٣]، والجواب يكون محذوفًا في مثل هذا الموضع، تقديره في هذا البيت: فلما كان كذا وكذا تنعمت وتمتعت بها، أو الجواب: قوله (هصرت) [٤]، وفي الآية: (فازا وظفرا بما أحبّا)، وحذف جواب **(لَمّا)** كثير في التنزيل وكلام العرب"[٥].

في هذا الكلام ذكر الزوزني الأوجه الثلاثة المحتملة في البيت، وهي:

الاحتمال الأول: زيادة الواو، وتقدير البيت: (فلما أجزنا ساحة الحي انتحى).

الاحتمال الثاني: أن جواب (لو) محذوف والتقدير:

فلمّا أجزْنا ساحَةَ الحيّ وانْتَحَى بنا بطنُ خَبْتٍ ذي حِقَافٍ عقَنقَل **تنعمت وتمتعت بها.**

---

(١) ينظر: شرح الزوزني (ص٣٥).

(٢) لم أجد في مجاز القرآن عند هذه الآية القول بزيادة الواو (١٧١/٢).

(٣) ينظر الخلاف بين الكوفيين والبصريين في الإنصاف (٤٥٦/٢ وما بعدها)، مغني اللبيب (٤٧٤).

(٤) هَصَرْتُ بفَوْدَيْ رأسِها فتَمايَلَت ..... عليّ هَضيمَ الكَشحِ رَيَّا الْمُخلخَلِ.

(٥) ينظر: شرح الزوزني (ص ٣٥).

وهذان الاحتمالان نظيرهما الوجهان المذكوران في الآية الكريمة: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾ [سورة الصافات: ١٠٣]. بجعل الواو زائدة(١)، والتقدير: (فلما أسلما تله للجبين)، أو الجواب محذوف قدره الزوزني بقوله: (فازا وظفرا بما أحبا).

وأما كون الجواب مذكورًا في البيت الثاني –وهو قوله **(هصرت)**، وهو **الاحتمال الثالث**– فلم يذكر نظيره في إعراب الآية، ولم أجد من ذكره في إعراب الآية؛ إذ لا يوجد فيما بعد الآية ما يصح أن يكون جوابًا، وإنما اقتصر في توجيه الآية على الوجهين السابقين فقط، ويضاف على وجه زيادة **(الواو)** أنه قد قيل: إن الواو الزائدة هي الواو في قوله ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾، وعليه يكون الجواب هو قوله (ناديناه)، وتقدير الكلام: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ نُودِيَ﴾، وقد جعل هذا وجها ثالثًا في إعراب الآية(٢).

المثال الثالث:

٥٠- فَقُلْتُ لَهُ لمّا عَوَى: إنَّ شَأْنَنا قَليلُ الغنى إنْ كنتَ لَمّا تَمَوَّلِ

معنى البيت: يذكر امرؤ القيس: مخاطبته للذئب لما عوى، وهما في واد مقفر، ويقول: إننا على حال واحدة من القلة وعدم المال.

قال الزوزني في شرح البيت "(لما) بمعنى (لم) كما كانت في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾ [سورة التوبة: ١٦]"(٣).

---

(١) تحاشى بعض العلماء إطلاق اسم (الزائد) على بعض حروف المعاني، فاستبدلها بكلمة: صلة، أو توكيد، أو نحو ذلك؛ حتى لا يسبق إلى الذهن أن وجودها كعدمها لاسيما في أشرف الكلام، وهو القرآن العظيم. ينظر كتاب (من وأخواتها مؤكدات لا زوائد) عمر عبدالله العمري. كل كلمة في القرآن، بل كل حرفٍ وضع موضعه اللائق به، بحيث لو أدير لسان العرب لاستبداله بغيره ما وقع موقعه. وايضًا فإن الزيادة في القرآن الكريم ليست لغوًا باطلًا، ولا عبثًا فارغًا، ولكنها تجيء لمطلب كريمٍ من مطالب البلاغة وفصاحة التعبير.

(٢) ينظر: مغني اللبيب (٤٧٤)، الدر المصون، للسمين الحلبي (٣٢٤/٩).

(٣) ينظر: شرح الزوزني (ص٤٩) ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٦﴾ التوبة: ١٦.

قال في الكشاف في معنى الآية: "وَ(لَمَّا) معناها التوقع، وقد دلت على أن تبين ذلك، وإيضاحه متوقع كائن، وأن الذين لم يخلصوا دينهم لله يميز بينهم وبين المخلصين"(١).

قلت: وحيث جعل الزمخشري (ت٥٣٨) (لما) للتوقع فهذا واضح أنه يريدها في أصل معناها. وليست بمعنى (لم)، والتوقع هو أحد الفروق الخمسة التي ذكرها ابن هشام بين (لما، ولم).

قال في المغني: "الرابع: أن منفي (لما) متوقع ثبوته، بخلاف لم .."(٢).

إذن لا يستقيم للشارح التمثيل في آية سورة التوبة بأن (لما) فيها بمعنى (لم)، وإن صح جعل (لما) في البيت بمعنى (لم) كما ذكره ابن الأنباري (ت٣٢٨) قبل المؤلف، ولكنه لم يستشهد بالآية(٣).

وأما مجيء (لما) بمعنى (لم) فيستقيم في أمثلة أخرى.

قال الزجاجي (ت٣٤٠): "(لما) تكون بمعنى (لم) في نفي الفعل المستقبل، كقوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۝٨﴾"(٤).

(١) ينظر الكشاف (١٤٢/٢).

(٢) ينظر: المغني (ص ٣١٨).

فائدة: القول بأن من معاني (لما) التوقع هو من مبتكرات الزمخشري /، كما نبه على ذلك أبو حيان ولم يرتضه، وذكره ابن هشام واحتفى به، فقال عنه: "والاستعمال والذوق يشهدان به". ينظر: البحر المحيط (٧٢/٣)، شرح قطر الندى، لابن هشام (١١٥)، وانظر بحثًا في النت في أنواع (لما) ومعانيها في القرآن الكريم في ضوء تفسير الكشاف، للزمخشري، لنزار عطا الله أحمد صالح: https: //journals. ju. edu. jo/DirasatLaw/article/viewFile/٤٤٧٨/٤٢١٧

(٣) ينظر: شرح القصائد السبع الطوال، لابن الأنباري (٨١).

(٤) ينظر: كتاب حروف المعاني، للزجاجي (١١)، رصف المباني، للمالقي (٢٨١)، المغني (٣٧٦).

المطلب الثاني:

الاستشهاد بالآيات في الصرف (مسألة التذكير والتأنيث)

المسألة الأولى: تأنيث المنسوب:

١٦- فمِثلِكِ حُبْلى قد طَرَقْتُ وَمُرْضعٍ فألْهَيتُها عن ذي تمائمَ مُحْوِلِ

المرضع: التي لها ولد رضيع.

والمعنى: أنه يتبجح بأنه قد أتى امرأة حاملاً، وكذا امرأة لها رضيع، أتى عليه حول كامل، قد علقت عليه التمائم، فأشغلها عن ولدها، وهو يريد بذلك أنك لن تتخلصي مني![١]

ناقش الزوزني (ت٤٨٦) التذكير في كلمة (مرضع) فقال: "إذا بنيت على الفعل أنثت فقيل: أرضعت فهي مرضعة، وإذا حملوها على أنها بمعنى ذات إرضاع أو ذات رضيع لم تلحقها تاء التأنيث، ومثلها حائض وطالق وحامل، لا فصل بين هذه الأسماء فيما ذكرنا، وإذا حملت على أنها من المنسوبات لم تلحقها علامة التأنيث، وإذا حملت على الفعل لحقتها علامة التأنيث، **ومعنى المنسوب** في هذا الباب أن يكون الاسم بمعنى ذي كذا أو ذات كذا، والاسم إذا كان من هذا القبيل عَرَّته العرب من علامة التأنيث كما قالوا: امرأة لابن وتامر أي: ذات لبن وذات تمر، ورجل لابن وتامر أي: ذو لبن وذو تمر، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [سورة المزمل: ١٨]. نص الخليل على أن المعنى: السماء ذات انفطار به، لذلك تجرد منفطر عن علامة التأنيث"[٢].

تعددت أقوال العلماء من المفسرين وغيرهم في وجه تذكير الخبر في قوله (منفطر) مع كون السماء مؤنثًا كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾ [سورة الانفطار: ١]، فأشار الزوزني إلى مذهب الخليل (ت١٧٥)

(١) ينظر: شرح الزوزني (ص٢٦)، فتح الكبير المتعال، لمحمد الدرة (٦٣/١).

(٢) ينظر: شرح الزوزني (ص٢٦)

أنها على النسب، قال سيبويه (ت١٨٠): "وزعم الخليل (ت١٧٥) رحمه الله أن: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [سورة المزمل: ١٨]. كقولك: معضل للقطاة[١]"[٢].

ومعنى كلام الخليل (ت١٧٥) كما بينه أبو علي الفارسي (ت٣٧٧) فقال: "لم يُرد بمنفطر الاسم الجاري على الفعل، وإنما أراد الذي بمعنى النَّسَب، أي: ذات انفطار"[٣].

وقيل: هي اسم جنس، واسم الجنس يذكر ويؤنث، فهو من باب الجراد المنتشر، والشجر الأخضر، و﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [سورة الحاقة: ٧][٤].

وقيل: بل هي بمعنى السقف فجاء ﴿مُنفَطِرٌ﴾.

قال أبو عبيدة (ت٢١٠): "قال أبو عمرو (ت١٥٤): السماء منفطرة، ألقى الهاء لأن مجازها السقف، تقول: هذا سماء البيت ..."[٥].

أما صاحب الكشاف فقد أضاف مسلكًا آخر يناسب دقته البلاغية، فقال: "السماء شيء منفطر، والباء في ﴿بِهِۦٓ﴾ مثلها في قولك: فطرت العود بالقدوم فانفطر به، يعني: أنها تنفطر بشدة ذلك اليوم وهوله، كما ينفطر الشيء بما يفطر به"[٦].

والحاصل أن الزوزني وجه تذكير (مرضع) في البيت بأحد أوجه قيلت في توجيه الآية، وهو وجه صحيح، له أمثلته الكثيرة في القرآن وكلام العرب.

(١) يقال: قطاة مُعْضِل. أي: احتبس بيضُها، والقطاة: طائر يشبه الحمام يعيش في الصحراء، أي: لم يقولوا يشبه الحمام. ينظر: اللسان، مادة: ع ض ل (٤٥٢/١١)، الدر المصون (٤٦٠/٢)، المعجم الوسيط (٢/ ٧٤٨).

(٢) ينظر الكتاب، لسيبويه (٤٧/٢).

(٣) ينظر التعليقة على كتاب سيبويه، لأبي علي الفارسي، تحقيق: عوض القوزي (٢٤٧/١)، والتكملة للفارسي (١١٧).

(٤) ينظر: معاني القرآن، للفراء (١٩٩/٣)، البحر المحيط (٣٥٧/٨).

(٥) ينظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٢٧٤/٢).

(٦) ينظر: الكشاف (١٥٥/٤).

ومنه ما ذكره الزوزني نفسه في قوله تعالى: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ﴾ [سورة البقرة: ٦٨]. أي: لا ذات فرض[١].

المسألة الثانية: (فعيل بمعنى: مفعول):

٣٠- هَصَـرْتُ بفَـوْدَيْ رأسِـها فتَمايَلَـت علـيّ هَضـيمَ الكَشـحِ رَيَّـا الْمُخلخَـلِ

الهصر: الجذب، والمعنى أنه لما خلا بعشيقته جذب رأسها بذؤابتيها إلَيه فطاوعته فيما أراد، في حال ضمر كشحيها وامتلاء ساقيها باللحم. قال الزوزني: "ولم يقل: **هضيمة الكشح**؛ لأن **فعيلاً إذا كان بمعنى مفعول** لم تلحقه علامة التأنيث؛ للفصل بين فعيل إذا كان بمعنى الفاعل وبين فعيل إذا كان بمعنى المفعول من قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الأعراف: ٥٦] "[٢].

فهم من كلامه أن فعيلاً إن كان بمعنى مفعول لم تلحقه التاء، مثل: هضيم، ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الأعراف: ٥٦].

وإن كان بمعنى فاعل فإن التاء تلحقه.

والقول بأن ﴿قَرِيبٌ﴾ في الآية بمعنى اسم المفعول -أي: مقربة- هو أحد أوجه قد قيلت في الآية، وهو وجه مقدم عند قوم ومؤخر عند آخرين في نقاش طويل.

قال أبو حيان (ت٧٤٥) -في أثناء جملة من الأقوال ذكرها-: وقيل: فعيل هنا بمعنى المفعول -أي مقربة- فيصير من باب: كف خضيب، وعين كحيل، قاله الكرماني (ت٥٠٠)، **وليس بجيد** لأن ما ورد من ذلك إنما هو من

(١) ينظر: شرح الزوزني (ص٤٣).

(٢) ينظر: شرح الزوزني (ص ٣٦).

الثلاثي غير المزيد، وهذا بمعنى (مقربة) فهو من الثلاثي المزيد، ومع ذلك فهو لا ينقاس"[١].

وقال ابن القيم (ت٧٥١) عن هذا الوجه: "هو من أقوى مسالك النحاة، وعليه يعتمدون، وقد اعترض عليه بثلاثة اعتراضات، ثم ذكرها مطيلاً النفس في نقاشها.

وكان قد ذكر في الآية اثني عشر مسلكًا مسهبًا القول فيها، ثم رجح أن الآية من باب الاستغناء بأحد المذكورين عن الآخر بكونه تبعًا له، وأن الأصل في الآية: (إن الله قريب من المحسنين، وإن رحمة الله قريبة من المحسنين)، ثم أثنى على هذا المسلك "بأنه لطيف المنزع، دقيق على الأفهام، وهو من أسرار القرآن ... .

ولو قال: إن رحمة الله قريبة من المحسنين لم يدل على قربه تعالى منهم؛ لأن قربه تعالى أخص من قرب رحمته، والأعم لا يستلزم الأخص، بخلاف قربه فإنه لما كان أخص استلزم الأعم، وهو قرب رحمته، فلا تستهن بهذا المسلك؛ فإن له شأنًا وهو متضمن لسر بديع من أسرار الكتاب ... وهو المختار وهو من أليق ما قيل فيها ... ثم في آخر البحث لما أتم ذكر المسالك ونقاشها قال عن هذا المسلك: إنه أصحها"[٢].

ثم اعلم أن هذه الآية قد حظيت بمزيد بحث عند أهل النحو والتفسير، وتنوعت وكثرت توجيهاتهم لها بل خصها عالمان كبيران في النحو بمؤلف خاص، فهذا ابن هشام الأنصاري المصري (ت٧٦٣) وكذا **ابن مالك الأندلسي** (ت٦٧٢) أفردا البحث فيها بمصنف جمعا **فيهما ما قيل من أوجه في الآية.**

قال ابن هشام (ت٧٦٣)**: وقد** أجاب العلماء – رحمهم الله – بأوجه تتبعتها فوقفت منها على **أربعة عشر وجهًا**، منها قوي وضعيف، وكل مأخوذ

(١) ينظر: البحر المحيط، لأبي حيان (٣١٤/٤).
(٢) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم (١٨/٣ وما بعدها).

من قوله ومتروك، ونحن نسرد ذلك بحول الله وقوته ...[١]. **والمقصود** بيان أن ما وجه به الزوزني البيت مستشهدًا على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ وجه صحيح قد قيل في توجيه الآية.

المسألة الثالثة: (فعول بمعنى فاعل)

٣٨- وتُضْحِي فتيتُ الْمِسكِ فوق فراشها نؤومُ الضحى لم تَنْتَطِقْ عن تفضّلِ

المعنى: أنه يأتي عشيقته ضحى وهي لا تزال نائمة، ولم تشد وسطها بنطاق فوق ثوب المهنة، فهي ليست بحاجة لذلك؛ فهي تُخدم ولا تَخدم، وبلغ من ترفها أن دقاق المسك فوق فراشها الذي باتت عليه.

قال الزوزني (ت٤٨٦): "قوله: نؤوم الضحى، عطَّل نؤومًا عن علامة التأنيث لأن فعولاً إذا كان بمعنى الفاعل يستوي لفظ صفة المذكر والمؤنث فيه، يقال: رجل ظلوم وامرأة ظلوم، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [سورة التحريم: ٨]".

قلت: وما ذكره الزوزني (ت٤٦٨) هو المعروف في هذا الوزن، قال الزجاج (ت٣١٠): "وفَعُول من أسماء الفاعلين، التي تستعمل للمبالغة في الوصف، تقول: رجل صبورٌ وَشَكُورٌ، وتوبة نَصُوحٌ"[٢].

قال ابن عاشور(ت١٣٩٣): "وَإِنَّمَا لَمْ تَلْحَقْ وَصْفَ (نَصُوحٍ) هَاءُ التَّأْنِيثِ الْمُنَاسِبَة لِتَأْنِيثِ الْمَوْصُوفِ بِهِ لِأَنَّ فَعُولاً بِمَعْنَى فَاعِلٍ يُلَازِمُ الْإِفْرَادَ وَالتَّذْكِيرَ "[٣].

---

(١) ينظر في ذلك كتاب: مسألة في الحكمة في تذكير قريب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، لابن هشام، تحقيق: عبد الفتاح الحموز، مسألة على قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لابن مالك، حققها الدكتور محمد وجيه تكريتي ضمن بحوث مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، عدد ٤٦ (١٩٩٤). وفي الأشباه والنظائر (١٧٥/٣-١٩٨) أورد السيوطي (ت٩١١) ملخصًا لكلام ابن مالك، ثم أتبعه بكلام ابن هشام. ونحو هذا صنيع ابن القيم قبله في بدائع الفوائد (٣٥/٣).

(٢) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٥/ ١٩٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٦٨).

المبحث الثاني:
الاستشهاد بالآيات على المعاني

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: المعاني القريبة.

المطلب الثاني: المعاني البعيدة.

المطلب الأول: المعاني القريبة

قصدت بالمعاني القريبة هي المعاني المتبادرة، وربما لم يذكر غيرها في معنى الآية، فالاستشهاد بها من باب تأكيد المعنى وزيادة في التوضيح، ولذلك أمثلة:

المثال الأول:

٤٠- تُضيءُ الظَّلامَ بالعِشاءِ كأنَّها مَنَارَةُ مُمْسَى راهبٍ مُتَبَتِّلِ

معنى البيت: يبالغ امرؤ القيس هنا في وصف معشوقته بأن نور وجهها يضيء في الظلام أشد إضاءة، حتى إنه يكاد نور وجهها يغلب ظلام الليل، كما أن نور مصباح الراهب المنقطع للعبادة يغلبه.

فالمتبتل: قال الزوزني يعني: المنقطع إلى الله بنيته وعمله، والبتل: القطع، ومنه قيل: مريم البتول لانقطاعها عن الرجال واختصاصها بطاعة الله تعالى، فالتبتل إذن: الانقطاع عن الخلق والاختصاص بطاعة الله تعالى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾ [سورة المزمل: ٨]"(١).

قلت: هذه إحدى عبارات السلف في معنى التبتل.

وفي تفسير ابن جرير قال: "﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾ [سورة المزمل: ٨]. يَقُولُ: وانقطع إليه انقطاعا لحوائجك وعبادتك دون سائر الأشياء غيره، وهو من قولهم: تبتلت هذا الأمر؛ ومنه قيل لأم عيسى ابن مريم البتول، لانقطاعها إلى الله، ويقال للعابد المنقطع عن الدنيا وأسبابها إلى عبادة الله: قد تبتل؛ ومنه الخبر الذي روي عن النبي ﷺ "أنه نهى عن التبتل"(٢).

قال في الكشاف: "وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ، وانقطع إليه"(٣).

(١) يتظر: شرح الزوزني (ص٤٢).
(٢) تفسير الطبري (٣٧٧/٢٣).
(٣) الكشاف (٦٣٩/٤).

ومن السلف من عبر بالإخلاص، ومنهم بالاجتهاد، وقيل: توكل عليه توكلاً[1]، وما ذكره الزوزني هو المعنى القريب المشهور عند أهل التفسير، فهو معنى صحيح.

المثال الثاني:

٤٣- ألا رُبّ خَصْـم فيـكِ ألْـوَى رَدَدتُـه نصـيحٍ علـى تَعذالـهِ غيـرِ مُؤتَـلِ

معنى البيت: أنه لا يقبل نصح الخصوم في محبة معشوقته، ويردهم غير مبال بعذلهم، أي: لومهم.

قال الزوزني: "الخصم لا يثنى ولا يجمع، لا يؤنث في لغة شطر من العرب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾﴾ [سورة ص: ٢١]، ويثنى ويجمع في لغة الشطر الآخر من العرب، ويجمع على الخصام والخصوم"[2].

قلت: يريد الزوزني بهذا الاستشهاد أن الخصم في البيت بمعنى الخصوم، وهو المناسب للسياق، والموافق للاستعمال الأغلبي في **(رب)** في كونها للتكثير[3].

وجعل نظيره كلمة ﴿ٱلۡخَصۡمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾﴾ [سورة ص: ٢١]، ويدل على هذا قوله: ﴿تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ [سورة ص: ٢٢]. وأما قوله بعدها﴿خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة ص: ٢١-٢٢]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ﴾ [سورة الحج: ١٩]، فالاستعمال القرآني جاء بالإفراد المراد به الجمع، وجاء بلفظ التثنية، ولكل سياق ما يناسبه، قال في الكشاف "والخصم: الخصماء، وهو يقع على الواحد والجمع؛ كالضيف، قال

(١) تنظر عبارات السلف في: موسوعة التفسير بالمأثور (٣٥٣/٢٢، ٣٥٤).

(٢) ينظر: شرح الزوزني (ص٤٤).

(٣) ينظر: حروف المعاني، للزجاجي (١٤)، المغني (١٨٠).

الله تعالى: ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الذاريات: ٢٤]؛ لأنه مصدر في أصله، تقول: خصمه خصمًا، كما تقول: ضافه ضيفًا".

ثم أجاب: كيف صح الجمع وهما خصمان؟

فبين أن كل خصم عبارة عن فريق، فهو جمع بهذا الاعتبار(١).

إلا أن الشاهد في الآية في استعمال (الخصم) مرادًا به الجمع كما هو وارد في البيت، وأنه استعمال قرآني صحيح.

المثال الثالث:

٥١- كِلانا إذا ما نالَ شيئًا أفاتَهُ ومَن يحترِث حَرْثي وحَرْثك يهزُلِ

هذا البيت في جملة كلام امرئ القيس المتخيل مع الذئب الذي لقيه في الوادي المقفر، فقال له: كل منا إذا حصل شيئًا أنفقه وأضاعه، فلا تزال حالنا في الفقر وضيق العيش، ومن سار على طريقنا وسعى سعينا افتقر، وعاش مهزول العيش مثلنا.

قال الزوزني: "أصل الحرث: إصلاح الأرض وإلقاء البذر فيها، ثم يستعار للسعي والكسب، كقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [سورة الشورى: ٢٠] الآية، وهو في البيت مستعار، والاحتراث والحرث واحد"(٢).

قلت: تفسير الحرث في الآية بالعمل هو المعنى القريب، وهو المذكور في تفسير الآية، قال ابن جرير (ت٣١٠): " من كان يريد بعمله الآخرة نزد له في حرثه: يقول: نزد له في عمله الحسن، فنجعل له بالواحدة عشرًا، إلى ما شاء ربنا من الزيادة، ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [سورة الشورى: ٢٠] يقول: "ومن كان يريد بعمله الدنيا ولها يسعى لا للآخرة، نؤته منها ما قسمنا له منها"(٣).

(١) ينظر فتوح الغيب، للطيبي (٢٥٨/١٣).

(٢) ينظر: شرح الزوزني (ص٤٣).

(٣) تفسير ابن جرير (٤٩١/٢٠)، الكشاف، للزمخشري (٢١٨/٤).

المطلب الثاني: المعاني البعيدة

والمراد بالمعاني البعيدة: هي التي لا تكون مقدمة في معنى الآية، وهي متفاوتة في بعدها، وقد يكون من المعاني البعيدة ما هو شاذ مطرح عند أهل التفسير، إلا أن الشارح قد يستدعي المعنى البعيد أو وجهًا غير متبادر في معنى الآية ليدعم وجهًا قيل في معنى البيت.

المثال الأول:

١- قِفا نَبكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزل بِسقطِ اللّوى بينَ الدَّخول فَحَوْمَلِ

استهل امرؤ القيس معلقته بخطاب لصاحبيه أو لصاحب له -كما سيأتي-، وطلب منهما أن يقفا معه ليسعداه ويعينانه على البكاء عند تذكره حبيبًا فارقه، ومنزلاً خرج منه، وكان هذا الطلب بمنقطع الرمل بين هذين الموضعين (الدخول وحومل)[١].

ناقش الشراح -ومنهم الزوزني (ت٤٨٦)- التثنية في خطاب امرئ القيس (قفا)، أهي على ظاهرها، وأنه يخاطب صاحبيه -وهذا لا إشكال فيه[٢]- أو هو خطاب لصاحب واحد فقط؟ قال في خزانة الأدب: "هو قول لأكثر أهل اللغة"[٣]، وهذا يؤيده قوله فيما بعد:

٧٠- أصاحِ ترى برقًا أريك وَميضَه كلمح اليدين في حَبِي مُكَلَّل[٤]

ولكن خرج خطاب الواحد مخرج خطاب الاثنين، ثم قال الزوزني (ت٤٨٦): "لأن العرب من عادتهم إجراء خطاب الاثنين على الواحد والجمع، ... وإنما فعلت العرب ذلك لأن الرجل يكون أدنى أعوانه اثنين: راعي إبله وراعي غنمه، وكذلك الرفقة أدنى ما تكون ثلاثة، ...

---

(١) ينظر: شرح الزوزني (ص١٧).

(٢) قال الفاكهي (٩٨٢): وهذا هو الوجه الأوجه عندي. ينظر: فتح المغلقات (٣٠٧/١).

(٣) ينظر: خزانة الأدب، لعبدالقادر البغدادي (١١/ ١٧).

(٤) ينظر: شرح القصائد المشهورات، لابن النحاس (ص٣)، قال الفاكهي (ت٩٨٢): ولا يصلح شاهدًا، لأن البليغ قد يخص بالخطاب واحدًا تخصيصًا بعد تعميم لنكتة اقتضاها الحال" ينظر: فتح المغلقات (٣٠٨/١).

قلت: وهذا التوجيه يعود بنا إلى أنه خطاب لاثنين.

ويبقى البحث في قوله بعد ذلك: "ويجوز أن يكون المراد به: قف قف، فإلحاق الألف أمارة دالة على أن المراد تكرير اللفظ، كما قال أبو عثمان المازني [(١)] في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩﴾ [سورة المؤمنون: ٩٩]. المراد منه: ارجعني ارجعني ارجعني، جعلت الواو علمًا مشعرًا بأن المعنى تكرير اللفظ مرارًا.

وقيل: أراد قفن على جهة التأكيد، فقلبت النون ألفًا في حال الوصل؛ لأن هذه النون تقلب ألفًا في حال الوقف، فحمل الوصل على الوقف، ألا ترى أنك لو وقفت على قوله تعالى: ﴿لَنَسۡفَعَۢا﴾ [سورة العلق: ١٥] قلت: لنسفعا؟".

تضمن كلام الزوزني (ت٤٨٦) توجيهين لمناسبة التثنية في قوله **(قفا)**، واستشهد لكل وجه بآية كريمة.

الوجه الأول: أن التثنية هي باعتبار تكرار الطلب، وهذا قول مشهور، ولكن لا أدري لماذا عدل المؤلف عن التنظير بقوله تعالى: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ٢٤﴾ [سورة ق: ٢٤] كما مثل بها ابن الأنباري (ت٣٢٨)، وابن النحاس (ت٣٣٨)، والتبريزي (ت٥٠٢) وغيرهم، فهو الموافق للبيت حيث خطاب الواحد بخطاب الاثنين على ما ذكر، وإن كان الراجح خلافه[(٢)]، وأما قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩﴾ [سورة المؤمنون: ٩٩]. والمراد: ارجعني ارجعني

---

(١) هو أبو عثمان: بكر بن محمد المازني البصري، له عناية في كتاب سيبويه، أخذ عن أبي عبيدة، والأصمعي، توفي سنة ٢٤٨هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء (٢٧٠/٢)، معجم الأدباء (٧٥٧/٢)، وفيات الأعيان (٢٨٣/١).

(٢) قال ابن كثير "وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا مُخَاطَبَةٌ مَعَ السَّائِقِ وَالشَّهِيدِ، فَالسَّائِقُ أَحْضَرَهُ إِلَى عَرْصَةِ الْحِسَابِ، فَلَمَّا أَدَّى الشَّهِيدُ عَلَيْهِ، أَمَرَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى بِإِلْقَائِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ". ينظر: تفسير ابن كثير، ت سلامة (٧/ ٤٠٢).

وقال أبو حيان في قوله تعالى: "﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾: الْخِطَابُ مِنَ اللَّهِ لِلْمَلَكَيْنِ: السَّائِقِ وَالشَّهِيدِ. وَقِيلَ: لِلْمَلَكَيْنِ مِنْ مَلَائِكَةِ الْعَذَابِ، فَعَلَى هَذَا الْأَلِفُ ضَمِيرُ الِاثْنَيْنِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَجَمَاعَةٌ: هُوَ قَوْلٌ إِمَّا لِلسَّائِقِ، وَإِمَّا لِلَّذِي هُوَ مِنَ الزَّبَانِيَةِ، وَعَلَى أَنَّهُ خِطَابٌ لِلْوَاحِدِ. وَقَالَ الْمُبَرِّدُ مَعْنَاهُ: أَلْقِ أَلْقِ، فَثَنَّى. وَقَالَ الْفَرَّاءُ: هُوَ مِنْ خِطَابِ الْوَاحِدِ بِخِطَابِ الِاثْنَيْنِ. وَقِيلَ: الْأَلِفُ بَدَلٌ مِنَ النُّونِ الْخَفِيفَةِ، أُجْرِيَ الْوَصْلُ مُجْرَى الْوَقْفِ، **وَهَذِهِ أَقْوَالٌ مَرْغُوبٌ عَنْهَا، وَلَا ضَرُورَةَ تَدْعُو إِلَى الْخُرُوجِ عَنْ ظَاهِرِ اللَّفْظِ لِقَوْلِ مُجَاهِدٍ**". ينظر: البحر المحيط (٩/ ٥٣٧).

ارجعني، فهو من خطاب الواحد بخطاب الجماعة، فليس هناك مطابقة مع البيت إلا في أصل الموضوع، وهو إلحاق ضمير التثنية أو ضمير الجمع، **لا باعتبار تعدد من قام به ولكن باعتبار تعدد طلب القيام به وتكرار طلب الفعل** كما في الأمثلة، والنقل المنسوب للمازني (ت٢٧٤) إنما ذكر عند قوله تعالى: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ٢٤﴾ [سورة ق: ٢٤]. كما نبه على ذلك الشهاب الخفاجي (ت١٠٦٩)، قال –معلقًا على عبارة البيضاوي (ت٦٨٥): وقيل لتكرير قوله (ارجعني)–: "هذا منقول عن المازني (ت٢٧٤) في (قفا نبك وأطرقا) ونحوه، فأصله: قف قف على التأكيد، وبه فسر قوله تعالى: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾"[(١)].

قلت: ولعل نقله هنا من باب التخريج لقول المازني (ت٢٧٤)، فالباب واحد[(٢)]، وهو ما ذهب إليه أبو العباس المبرد (ت٢٨٦)، وخالفه أبو إسحق الزجاج (ت٣١١)[(٣)]، ثم قال الشهاب (ت١٠٦٩): لكنه مشكل جدًّا، ثم أورد على هذا أسئلة متعددة:

هل هذا من باب الحقيقة أو هو مجاز؟

ثم من أي أنواعه؟ وكيف دلالته على المراد؟ وما علاقته؟

وإلا فهو مما لا وجه له!

إلى أن قال /: "ولم تزل هذه الشبهة قديمًا في خاطري، والذي خطر لي أنّ لنا **استعارة أخرى غير ما ذكر في المعاني** ..."[(٤)].

(١) حاشية الشهاب على البيضاوي، (٦/٣٤٥).

(٢) حاشية محيي الدين زاده على البيضاوي (٣/٤١٠).

(٣) شرح ابن النحاس (ص٤).

(٤) ولكونها لا علاقة لها بالمعنى لم تذكر، وهي استعارة لفظ مكان لفظ آخر لنكتة بقطع النظر عن معناه، وهو كثير في الضمائر، كاستعمال الضمير المجرور الظاهر مكان المرفوع المستتر في كفى به حتى لزم انتقاله عن صفة إلى صفة أخرى ومن لفظ إلى آخر، وما نحن فيه من هذا القبيل، فإنه غُيّر الضميران المستتران إلى ضمير مثنى ظاهر فلزم الاكتفاء بأحد لفظي الفعل، وجعل دلالة الضمير المثنى على تكرير الفعل قائمًا مقامه في التأكيد من غير تجوّز فيه، ولابن جني في الخصائص كلام يدل على ما ذكرناه، فتأمّل.

مما جعل الألوسي (ت١٢٧٠) يتعقب هذا التدقيق الذي يظهر فيه بوضوح التعقيد قبل التقعيد بقوله: "**ولعمري لقد أبعد جدًّا**"(١).

الوجه الثاني: أنها من باب قوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًۢا﴾ [سورة العلق: ١٥] في حال الوقف(٢)، فتبدل نون التوكيد الخفيفة ألفًا، إذ أصلها (لنسفعن)

إلا أنه في البيت قلب نون التوكيد ألفًا في حال الوصل؛ لأن هذه النون تقلب ألفًا في حال الوقف، فحمل الوصل على الوقف.

قلت: إذن لا شاهد في الآية؛ **لأن الآية لم تقرأ بما ذكر، فإيرادها لمجرد توضيح قلب النون ألفًا.**

أما ابن جرير (ت٣١٠) / فقد رأى رأيًا آخر، فللكلام بداية مع الله ﷻ بقوله **(رب)**، ثم نهاية مع الملائكة، فابْتَدَأَ الْكَلَامَ بِخِطَابِ اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ قِيلَ: ﴿ٱرۡجِعُونِ﴾ [سورة المؤمنون: ٩٩]. ، فَصَارَ إِلَى خِطَابِ الْجَمَاعَةِ، وَاللَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ وَاحِدٌ. وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، لِأَنَّ مَسْأَلَةَ الْقَوْمِ الرَّدَّ إِلَى الدُّنْيَا إِنَّمَا كَانَتْ مِنْهُمْ لِلْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يَقْبِضُونَ رُوحَهُمْ، كَمَا ذَكَرَ ابْنُ جُرَيْجٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَهُ(٣). وَإِنَّمَا ابْتُدِئَ الْكَلَامُ بِخِطَابِ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ؛ لِأَنَّهُمُ اسْتَغَاثُوا بِهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى مَسْأَلَةِ الْمَلَائِكَةِ الرُّجُوعَ وَالرَّدَ إِلَى الدُّنْيَا"(٤).

قلت: وقريب من هذا من قال الخطاب للملائكة عليهم السلام، والكلام على تقدير مضاف، أي: يا ملائكة ربي، ارجعوني(٥).

---

(١) ينظر: روح المعاني (٦٣/١٨)

(٢) ينظر: خزانة الأدب، للبغدادي (١١/ ١٧)

(٣) يشير بهذا إلى أثر ابْنِ جُرَيْجٍ – الذي رواه قبل ذلك – قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَائِشَةَ: $إِذَا عَايَنَ الْمُؤْمِنُ الْمَلَائِكَةَ قَالُوا: نُرْجِعُكَ إِلَى الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: إِلَى دَارِ الْهُمُومِ وَالْأَحْزَانِ؟ فَيَقُولُ: بَلْ قَدِّمَانِي إِلَى اللَّهِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُقَالُ: نُرْجِعُكَ؟ فَيَقُولُ: لِعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ# الْآيَةُ. ينظر: تفسير الطبري، ط هجر (١٧/ ١٠٨). أخرجه ابن جرير مرسلًا، الفتح السماوي (٨٥٧/٢).

(٤) ينظر المرجع السابق.

(٥) ينظر: الدر المصون (٨/ ٣٦٦)، التبيان في إعراب القرآن (٢/ ٩٦٠).

بقي من الأوجه التي قيلت في الآية أن الواو للتعظيم، وهذا لفظ تعرفه العَرَبُ للجليل الشأن يخبر عن نفسه بما يخبر به الجماعةُ، فَكذلك جاء الخطاب في ﴿ٱرۡجِعُونِ﴾ [سورة المؤمنون: ٩٩][(١)].

قال في الدر المصون عن هذا الوجه: "**إنه أجود الأوجه**"[(٢)].

<u>وحيث تعددت الأقوال كما ترى فيحسن إجمالها كما يأتي:</u>

القول الأول: أَنه مثنى حَقِيقَة، فهو خطاب لصاحبيه.

القول الثاني: أن التَّثْنِيَة لتأكيد الْفِعْل وتكريره، وَالْأَصْل: قف قف.

القول الثالث: أَنه خطاب لرفيق وَاحِد، قَالُوا: لِأَن الْعَرَب تخاطب الْوَاحِد بخطاب الِاثْنَيْنِ.

القول الرابع: أَن أَصله (قفن) بنُون التوكيد الْخَفِيفَة، فأبدل النُّون ألفًا إِجْرَاء للوصل مجْرى الْوَقْف.

---

(١) ينظر: معاني القرآن، للفراء (٢/ ٢٤١)، معاني القرآن، للنحاس (٤/ ٤٨٤).

(٢) ينظر: الدر المصون، للسمين الحلبي (٨/ ٣٦٦).

فائدة: قال في روح المعاني (٦٣/١٨) "والحق أن التعظيم يكون في ضمير المتكلم و المخاطب بل والغائب والاسم الظاهر، وإنكار ذلك غير رضي، والإيهام الذي يدعيه ابن مالك هنا لا يلتفت إليه".

وفي الدر المصون (٣٦٦/٣) علق على قول الشاعر:

ألا فارْحَمُوني يا إلَهَ محمدٍ .....

قد يُؤْخَذُ من هذا البيتِ ما يَرُدُّ على الشيخ جمال الدين بن مالك حيث قال: "إنه لم يَعْلَمْ أحدًا أجاز للداعي يقول: يا رحيمون، قال: لئلاّ يوهِمُ خلافَ التوحيدِ، وقد أَخْبر تعالى عن نفسه بهذه الصيغةِ وشِبْهِها للتعظيمِ في غيرِ موضعٍ من كتابِه الكريم.

قلت: والبيت المذكور، والآية التي هي محل بحثنا ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩﴾، وكذلك ما أخبر الله به عن نفسه في غير موضع كقوله: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩ ﴾ ليست خافية على ابن مالك /، وفرق بين (فارحموني) بالواو تعظيمًا لله، – وله نظائره – وقولك: يارحيمون خطابًا لله بما لا نظير له.

وكلام ابن مالك ﷺ في شرح التسهيل (٨٠/١) واضح في التفصيل والممنوع الذي يريده، فقال بعد أن ذكر قوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴾، و﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، و﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾: "فأما أسماء الله تعالى فمعنى الجمعية فيها ممتنع، وما ورد منها بلفظ الجمع فتعظيم يتوقف فيه على السماع أصلاً، كما يتوقف عليه في غيره من الثناء والحمد، بل التوقف على السماع في هذا أحق ...، ولا أعلم أحدًا يجيز للداعي أن يدعو الله بلفظ الجمع، لأن ذلك يوهم خلاف التوحيد".

القول الخامس: أن الخطاب للملائكة الموكلة بقبض أرواحهم، بعد نداء الله بقوله (رب).

القول السادس: أن الكلام على تقدير مضاف، والأصل: يا ملائكة ربي، ارجعون.

المثال الثاني:

٢١- وَإِنْ تَـــكُ قَـــدْ ســـاءَتكِ منـــي خَليقـــةٌ فَسُـلّي ثيـابي مـن ثيابِـكِ تَنْسُـلِ[١]

المعنى: يخاطب امرؤ القيس معشوقته، ويقول لها: إن ساءك شيء من أخلاقي، وكرهت خصلة من خصالي، ففارقيني، فلك ما اخترت!

قال الزوزني: "من الناس من جعل الثياب في هذا البيت بمعنى القلب ... والمعنى على هذا القول: إن ساءك خلق من أخلاقي، وكرهت خصلة من خصالي، فردي علي قلبي أفارقك، ... وقد حملت الثياب في قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [سورة المدثر: ٤] على أن المراد به القلب"[٢].

قلت: وهذا أحد أقوال قيلت في تفسير الثياب في الآية.

وخلاصتها: هل الثياب في معناها الحسي، وتكون الآية أمرًا في تطهير الثياب الملبوسة، أو في الثياب المعنوية وهي القلب والخلق ونحو ذلك؟

قال سعيد بن جبير: وقلبك ونيتك فطهّر[٣]. وقال قتادة: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ يعني: طهر قلبك بالتوبة عن الذنوب والمعاصي[٤]، وقال مقاتل: يعني: قلبك فطهر بالتوبة[٥].

---

(١) قال الزوزني: ومنهم من رواه: تنسِلي، وجعل الانسلاء بمعنى: التسلي، والرواية الأولى أولاهما بالصواب.

(٢) ينظر: شرح الزوزني (ص٣٠).

(٣) ينظر: الكشف والبيان، للثعالبي (١٨/٢٨)، تفسير البغوي (٢٦٥/٨).

(٤) تفسير ابن جرير (٤٠٧/٢٣).

(٥) ينظر تفسير مقاتل (٩٠/٤).

وقريب من هذا القول قول من قال: طهِّرْ نفسَك من الذنوب[١].

قال ابن جرير (تـ٣١٠) عن هذا القول: وعليه أكثر السلف، وقال قبله عن قول من جعل الثياب حسية، وأن المشركين كانوا لا يتطهرون، فأمره الله أن يتطهر، ويطهر ثيابه، قال: **أظهر معانيه**"[٢].

قال شيخ الإسلام (تـ٧٢٨): "والأشبه –والله أعلم– أن الآية تعم نوعي الطهارة، وتشمل هذا كله، فيكون مأمورًا بتطهير الثياب المتضمنة تطهير البدن والنفس من كل ما يستقذر شرعًا من الأعيان والأخلاق والأعمال؛ لأن تطهيرها أن تجعل طاهرة، ومتى اتصل بها وبصاحبها شيء من النجاسة لم تكن مطهرة على الإطلاق، فإنها متى أزيل عنها نجس دون نجس لم تكن قد طهرت حتى يزال عنها كل نجس، بل كل ما أمر الله باجتنابه من الأرجاس وجب التطهير منه، وهو داخل في عموم هذا الخطاب"[٣].

قلت: وبهذا يتبين صحة تفسير معنى الثياب في البيت بالقلب والأخلاق ونحوها، وفي القرآن ما يشهد له[٤].

(١) تنظر أقوال السلف حول هذا المعنى في موسوعة التفسير المأثور (٣٧٩/٢٢ وما بعدها).

(٢) ينظر: تفسير ابن جرير (٤٠٩/٢٣).

(٣). ينظر: شرح العمدة (كتاب الصلاة) (٤٠٧).

(٤) أشار الزوزني (تـ٤٨٦) بعد كلامه السابق حول البيت:

وَإِنْ تَكُ قَدْ ساءَتكِ مني خَليقةٌ ... فَسُلّي ثيابي من ثيابِكِ تَنْسُلِ

إلى معنى بلاغي جميل تحسن الإشارة إليه بعبارته: "ومن الناس من حمل الثياب في البيت على الثياب الملبوسة وقال: كنّى بتباين الثياب وتباعدها عن تباعدهما، وقال: إن ساءك شيء من أخلاقي فاستخرجي ثيابي من ثيابك أي: ففارقيني وصارميني كما تحبين، فإني لا أوثر إلا ما أثرت، ولا أختار إلا ما اخترت؛ لانقيادي لك وميلي إليك، فإذا آثرتِ فراقي آثرتُه، وإن كان سبب هلاكي وجالب موتي".

المثال الثالث:

٢٢- وَمـا ذَرَفَـتْ عَينـاكِ إلا لتَضْـرِبِي بسَـهمَيك فـي أعشـار قَلـبٍ مُقَتَّـلِ

المقتّل: المذلل غاية التذليل، المعنى: ما دمعت عيناك وما بكيت إلا لتصيدي قلبي بسهمي دمع عينيك، وتجرحي قطع قلبي الذي ذللته بعشقك غاية التذليل(١).

قال الزوزني (ت٤٨٦): "والقتل في الكلام بمعنى: التذليل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾﴾ [سورة النساء: ١٥٧]. عند أكثر الأئمة: أي ما ذللوا قولهم بالعلم اليقين"(٢).

قلت: وعمدة هذا القول هو في تفسير مرجع الضمير في قوله ﴿قَتَلُوهُ﴾، وسياق الآية الكريمة ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾﴾ [سورة النساء: ١٥٧].

قال في البحر: "قال ابن عباس (ت٦٨) والسدي (ت١٢٧) وجماعة: الضمير في (قتلوه) عائد على **الظن**، تقول: قتلت هذا الأمر علمًا إذا قطعت به، وجزمت الجزم الذي لا يخالجه شيء.

فالمعنى: وما صح ظنهم عندهم وما تحققوه يقينًا، ولا قطعوا الظن باليقين. وقال الفراء (ت٢٠٧) وابن قتيبة (ت٢٧٦) الضمير عائد على **العلم**، أي: ما قتلوا العلم يقينًا. يقال: قتلت العلم والرأي يقينًا، وقتلته علمًا، لأن القتل للشيء يكون عن قهر واستعلاء، فكأنه قيل: لم يكن علمهم بقتل المسيح علمًا أحيط به، إنما كان ظنًّا.

(١) ينظر: شرح الزوزني (ص٣٠)، فتح الكبير المتعال، لمحمد الدرة (٧٧/١).
(٢) ينظر: شرح الزوزني (ص٣٠).

وقد نسب الزوزني هذا القول إلى أكثر الأئمة كما ترى، وفي ذلك نظر، ففي البحر المحيط لأبي حيان بعد أن ذكر الكلام السابق قال:

"والظاهر قول الجمهور: إن الضمير يعود على عيسى بجعل الضمائر كلها كشيء واحد، فلا تختلف، والمعنى صحيح بليغ"(١).

وغاية ما يقال عن الوجه المذكور أنه جائز بمرجوحيه للقاعدة التفسيرية، كما قال ابن عاشور: "ويجوز أن يكون القتل مستعملاً مجازًا في التمكن من الشيء والتغلب عليه ..."(٢).

قلت: ومع ذلك يبقى أن حمل كلام الله على المتبادر من اللفظ أولى، وفيه مراعاة لعادة القرآن في الاستعمال؛ إذْ لم أجد القتل في القرآن بغير المعتاد من استعماله، وهاتان قاعدتان من قواعد الترجيح في التفسير(٣).

(١) ينظر: البحر المحيط (٤٠٦/٣).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٢٣/٦).

(٣) وهما: ١- حمل كلام الله على المتبادر من اللفظ أولى. ٢- وجوب مراعاة عادة القرآن في الاستعمال. ينظر في الموضوع (عادات القرآن الأسلوبية، دراسة تطبيقية، د. راشد الثنيان).

وقد استدل ابن عباس على نافع بن الأزرق بعادة القرآن بأن الورود في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، بمعنى الدخول بالاستعمال القرآني في قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾، وبقوله: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾. ينظر: تفسير الطبري (١٠٩/١٦)، وقواعد الترجيح عند المفسرين (١٧٣/١).

الخاتمة:

فقد انتهت رحلة ماتعة بالنسبة لي، أرجو أن تكون فاتحة باب لدراسة أوسع، وتأمل أكثر في إيراد العلماء للآيات موضحين فيها كلام الناس، ليبقى القرآن باللسان العربي المبين مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه، فكيف بما دونه من كلام البشر، سواء في ذلك نثره ونظمه.

كيف والله حفظه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة الحجر: ٩]، ولم يجعل للباطل سبيلاً إليه ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [سورة فصلت: ٤٢]؟!

فمن هذه بعض أوصافه، فحري بكل أحد –فضلاً عن المؤمن– أن يقدره حق قدره، وأن ينزله المنزلة التي تليق به، واختارها الله له.

ومن خلال الدراسة السابقة أسجل أمورًا يلحظها القارئ لهذا البحث أهمها:

- لم تقتصر الاستشهادات القرآنية على جانب دون آخر بل تنوعت مقاصد الاستشهاد بالآيات في النحو والإعراب والصرف وغيرها.
- من مقاصد الاستشهادات توضيح وتأكيد ما قيل في إعراب كلمة، وأنه نظير ما قيل في إعراب الآية الكريمة. انظر مثلاً البيت رقم ٢٣ (ولما دخلت الخدر خدر عنيزةٍ).
- جعل الآية شاهدا لإعراب البيت لا يلزم أن كل ما قيل في البيت يكون له نظير في الآية المذكورة، وإنما يكتفى ولو بوجه من أوجه أعاريب الآية، وكذلك العكس، وأنه لا يلزم أن الأوجه المذكورة في الآية يكون لها مقابل في إعراب البيت، انظر مثلاً: البيت رقم ٢٩ (فلما أجرنا ساحة الحي وانتحى).
- من خلال الدراسة تأكدت القاعدة أنه لا يلزم من صحة الدليل صحة المدلول، فإذا كان الشاهد الشعري حينما يورد يناقش الاستشهاد به من

حيث ثبوته وصحة دلالته، فإن الشاهد القرآني قد سلم من النقاش الأول، ويبقى النقاش الثاني قائمًا على سوقه، فقد لا تكون فيه دلالة أصلاً أو دلالته مرجوحة، وانظر مثلاً النقاش في مرجع الضمائر قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾ [سورة المؤمنون: ٩٩]. ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ [سورة ق: ٢٤]، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾﴾ [سورة النساء: ١٥٧].

وبعد هذا ألفت النظر إلى أن استشهاد أهل اللغة وغيرهم بالآيات القرآنية هو اعتراف ضمنًا بقوة مرجعية الاستدلال، وأنه تحاكم إلى فيصل في القضية، وبه يتبين ضعف من قعَّد ثم انطلق يستدل لما قعده، حتى اضطر إلى ردّ شيء مما ثبتت قرآنيته أو ذهب يتأوله بوجه مستكره!

وأخيرًا كان البحث فكرة أرجو أني وفقت في إبرازها، وصياغتها.

والحمد لله رب العالمين

مراجع البحث

- الإتقان، للسيوطي، ط. مجمع الملك فهد، المدينة.
- الأشباه والنظائر، للسيوطي، دار الكتاب العربي.
- الاقتراح في أصول النحو وجدله، للسيوطي، تحقيق: محمود فجال، دار القلم.
- الإنصاف في مسائل الخلاف، لابن الأنباري، دار الفكر– بيروت.
- إيضاح الوقف والابتداء، لابن الأنباري، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، تحقيق: محيي الدين عبد الرحمن رمضان.
- البحر المحيط: لأبي حيان الأندلسي، تحقيق مجموعة من الباحثين، دار الكتب االعلمية، بيروت.
- بدائع الفوائد، لابن القيم، دار الكتاب العربي – بيروت.
- بغية الرواة، للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية.
- التبيان في إعراب القرآن، للعكبري، علي البجادي، عيسى البابي الحلبي.
- التعليقة على كتاب سيبويه، للفارسي، تحقيق: القوزي، الطبعة الأولى.
- التفسير اللغوي للقرآن الكريم، أ. د مساعد الطيار، دار ابن الجوزي.
- تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق: عبد الله شحاته، الهيئة المصرية.
- التكملة، للفارسي، تحقيق: حسن فرهود، ط: جامعة الرياض.
- جزء فيه قراءات النبي ﷺ لأبي عمر حفص بن عمر، تحقيق حكمت بشير ياسين، مكتبة الدار بالمدينة المنورة.
- حاشية الخضري على شرح ابن عقيل، دار الفكر.
- حاشية الشهاب، المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، دار صادر، بيروت.
- حاشية محيي الدين زاده على البيضاوي، المكتبة الإسلامية.
- الحجة للقراء السبعة، لأبي علي الفارسي تحقيق: بدر الدين قهوجي وبشير حويجاتي، دار المأمون للتراث.

- حروف المعاني والصفات، لأبي القاسم الزجاجي، تحقيق: علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة – بيروت.
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، دار القلم– دمشق.
- السبعة في القراءات، لابن مجاهد، تحقيق: شوقي ضيف، الطبعة الثالثة، دار المعارف.
- الشاهد الشعري في تفسير القرآن الكريم، د: عبدالرحمن الشهري، مكنبة دار المنهاج –الرياض
- شرح ابن عقيل، لابن عقيل المصري، دار التراث– القاهرة.
- شرح العمدة (كتاب الصلاة)، تحقيق: أد خالد المشيقح، ط. دار العاصمة.
- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، لابن الأنباري، عبدالسلام هارون، دار المعارف.
- شرح القصائد العشر، للتبريزي، ضبطه: عبدالسلام الحوفي، دار الكتب العلمية.
- شرح القصائد المشهورات، لابن النحاس، دار الباز.
- شرح الكافية الشافية، لابن مالك، تحقيق: عبد المنعم أحمد هريدي، الطبعة الأولى، جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي.
- شرح قطر الندى لابن هشام، دار الفكر – بيروت.
- الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق: أحمد شاكر، دار المعارف.
- طبقات فحول الشعراء، لمحمد بن سلام الجمحي، تحقيق: محمود شاكر، شركة القدس.
- العمدة، لابن رشيق، دار الجيل.
- فتح الباري، لابن حجر، دار الفكر.
- فتح المغلقات لأبيات السبع المعلقات، للفاكهي، الجامعة الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.
- فتوح الغيب (حاشية على الكشاف)، للطيبي، جائزة دبي الدولية.

- فتح الكبير المتعال إعراب المعلقات العشر الطوال، محمد الدرة، مكتب السوادي– جدة.
- الكتاب، لسيبويه، تحقيق: عبدالسلام هارون، عالم الكتب.
- الكشاف، للزمخشري، دار الباز.
- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، لمكي بن أبي طالب، تحقيق: محيي الدين رمضان.
- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات، لابن جني، تحقيق علي النجدي، عبد الفتاح شلبي، دار سزكين للطباعة والنشر.
- مختصر في شواذ القرآن، لابن خالويه، عني بنشره ج. برجشتراسر.
- المدارس النحوية، شوقي ضيف، دار المعارف.
- مسألة الحكمة في تذكير قريب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾، لابن هشام، تحقيق: عبدالفتاح حموز، دار عمار.
- معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، عالم الكتب – بيروت.
- معجم الأدباء، للحموي، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله. ط. دار الفكر.
- منجد المقرئين، لابن الجزري، دار الكتب العلمية.
- موسوعة التفسير المأثور، إعداد مركز الدراسات والمعلومات القرآنية، دار ابن حزم.

المراجع الإلكترونية

- أنواع (لما) ومعانيها في القرآن الكريم في ضوء تفسير الكشاف، للزمخشري، لنزار عطا الله أحمد صالح:
https://journals.ju.edu.jo/DirasatLaw/article/viewFile/٤٤٧٨/٤٢١٧
- الاحتجاج بالقراءات القرآنية وموقف النحاة منه، محمود حسن عمر، شبكة الألوكة:

www.alukah.net